

تاريخ الاستلام: 2023/07/06 تاريخ القبول: 2025/02/04 تاريخ النشر: 2025/07/30

مصطفى بوبعوي*

جامعة 20 أوت 1955 - سكيكدة (الجزائر)

Email: musta16769pha@gmail.com

الملخص:

لقد مثل رمز المسيح قيمة ثابتة لدى شعراء فلسطين المعاصرين بما يحمله من دلالات الصليب والفداء والخلاص، حيث وجد الشاعر الفلسطيني في تجربة المسيح ملاذا للتعبير عن مأساة الوطن السليب بخاصة، وللإنسان العربي بصورة عامة. ولقد تغذى جزء كبير من الشعر الفلسطيني على عذابات المسيح ونشواته، وعلى أحزانه ومسرته في سبيل استرداد أرض اغتصبت. وإحياء أمة عانت معه محنة الصليب توكا إلى الخلاص.

سنعرض في هذه المقالة إلى مسألة إبداعية من الأهمية بمكان في الشعر الفلسطيني المعاصر، هي استنطاق المسيح واستلهاهم تجربته نشداناً للخلاص والاعتناق وذلك من خلال الوقوف عند دلالات هذه الشخصية الدينية وأبعادها لدى من الشعراء الفلسطينيين المعاصرين الذين وظفوا رمز المسيح في شعرهم.

الكلمات المفتاحية: المسيح، الرمز، المأساة، فلسطين، الوطن.

Abstract:

The symbol of christ represented a constant value for contemporary palestinian poets, with its connotations of crucifixion, deliverance, and salvation. The palestinian poet found in the experience of christ a haven to expresse the tragedy of the stolen homeland in particular, and the arab man in general. A large part of palestinian poetry has fed on the torments and ecstasies of christ, on his sorrows and joys in order to recover a usurped land and the revival of a nation that suffered with the ordeal of crucifixion, longing for salvation. In this article, we will present a creative issue of great importance in contemporary palestinian poetry, which is the interrogation of christ and the inspiration of his experience, searchin' for salvation and emancipation, by examining the implications and dimensions of this religious personality for a group of contemporary palestinian poets who employed the symbol of christ in their poetry.

Keywords : Christ, Symbol , Tragedy , Palestine , Homeland.

المقدمة

إن شخصية المسيح لقت صدى واسعا في الشعر العربي المعاصر على وجه العموم، وفي الشعر الفلسطيني المعاصر بخاصة، حيث أعاد الشعراء إنتاجها واستلهاها على غرار محمود درويش، عزالدين المناصرة، محمد القيسي، سميح القاسم....، وذلك من خلال جعل هذا الرمز ينبض بأبعاد دلالية متعددة، تحقيقا لرؤيا الشاعر الفلسطيني التي تحمل تجربة إنسانية عميقة في كثير من الأحيان، لا سيما إذا علمنا أن الشعر الفلسطيني رافد غزير من روافد الشعر العربي المعاصر، وقد استمد نسغه من الحركة الشعرية باتجاهاتها المختلفة. ولعل ما جعل أحد الدارسين يدعو دعوته المشهورة إلى ضرورة النهوض بالأدب الفلسطيني المعاصر بصورة عامة، تحت طائلة مشروع قومي كبير، ووفق رؤية جديدة تراعى فيها المعطيات الحضارية والاجتماعية الجديدة. (بئس م، 1988، ص 177)

ولعل اعتماد الشعراء الفلسطينيين على شخصية المسيح، والتوسل برمزيته، مرده الواقع التاريخي وعلاقته بالحالة النفسية التي هيمنت على هؤلاء الشعراء، وواضح أن استدعاء المسيح في أشعارهم، استذكار للمأساة الفلسطينية هنا. فالإحساس بوطأة الحالة النفسية للشاعر يحرك اتجاه القصيدة ويملي عليه استدعاء رمز ديني مقدس كالمسيح ليؤدي بعده ودلالته على مأساة الإنسان الفلسطيني المعاصر، (شعث أ، 2002، ص 310) الذي عانى النفي والتشرد والتمزق. وهذا ما يعكس تماما الأزمة النفسية للشعراء الفلسطينيين المعاصرين الذين اضطروا من جراء ذلك إلى اللجوء إلى الرموز، ومن بينها "رمز المسيح" الذي توسلوا تجربته واستلهموها لما تخزن من أبعاد الفداء والتضحية والخلاص والبعث.. فكان هذا الرمز المقدس من ثمة، معيناً للشعر يستنطقه للدلالة على أزمة الشاعر الوجودية الخانقة، وعلى مأساة شعبه. (المرجع نفسه، ص 310)

المسيح بين القرآن والكتاب المقدس:

قبل الكشف عما ينطوي عليه هذا الرمز الديني في الشعر الفلسطيني المعاصر من مضامين وأبعاد، لابد أن نقف مع حقيقة المسيح في القرآن الكريم والكتاب المقدس، ولغرض الوقوف على يقين هذه الحقيقة في القرآن الكريم أولاً، حيث وردت، وقد سلمت من كل تحريف، حيث نفى القرآن مسألة الصلب مطلقاً كما جاء في قوله تعالى: ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ (سورة النساء، آية 157) وقال تعالى في محكم التنزيل أيضاً: ﴿وإذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾ (سورة آل عمران، آية 55)

لم يمكنهم الله - عز وجل - من رقبته إذن، ونجاه من أيديهم كما أكد القرآن الكريم. أما حاله بعد نجاته من الصلب، فلقد اختلف المفسرون، ولو أن معظمهم قال بأن الله رفعه إليه بجسده وروحه، حتى وإن لم يفصل القرآن في الذي كان من أمر عيسى بعد رفعه، ويكتفي المسلمون في ذلك باعتقادهم الجازم أن المسيح لم يصلب، ولكن شبه لهم. (أبوزهرة م، د.ت، ص 98)

لما المسيحيون فيعتقدون أن "يسوع" مات على الصليب، وقد وردت حادثة الصلب في الأناجيل الأربعة بروايات متباينة، بما فيها إنجيل "مق"، حيث ورد فيه: "... لا صلبوه اقتسموا ثيابه مقترعين عليها، لكي يتم ما قيل بالنبى: "اقتسموا ثيابي بينهم، وعلى لباسي ألقوا قرعة". ثم جلسوا يحرسونه هناك. وجعلوا فوق رأسه علة مكتوبة: "هذا يسوع ملك اليهود". حينئذ صلب معه لصان، واحد عن اليمين وواحد عن اليسار". (ك.م، 2006، إنجيل مق، إصحاح 27، ص 28-29)

لأما محتوى عقيدة الصلب عند المسيحيين، فمفادها أن الله عندما أوصى آدم بالأكل من الشجرة المحرمة، خالف الأمر بإغواء من إبليس، فاستحق هو وذريته الفناء، لكن الله ورحمة بعباده جسد كلمته متمثلة في المسيح الذي رضي بموته على الصليب، وهو غير مستحق لذلك، لكي يكون فداء لتلك الخطيئة، ولم يكن بوسع أحد القيام بذلك الفداء سوى "ابن الله ابن الإنسان" -بحسب الاعتقاد المسيحي- وهذا الفداء هو المسيح عيسى ولد مريم العذراء. (أبوزهرة م، د.ت، ص 99)

التصورات الكنسية للمسيح بين الرمزية والأبعاد:

لعل الهالة الرمزية التي أحاطت بالمسيح، قد تسلت من المخيلة اللاهوتية الإغريقية، التي جسدت الإله في صورة إنسان، وقد يعود ذلك إلى التأثير بالثقافة الهيلينية (أبوغالي م، 1988، ص 63) وعلى الرغم من أن الكنيسة الأولى لم تحتفل بميلاد السيد المسيح على اعتبار أن الأذاجيل لم تحدد ميلاده، إلا أن الخامس والعشرين من شهر كانون الأول (ديسمبر)، عديوما مشهودا لدى المسيحيين يحتفلون فيه بعيسى، وهو اليوم نفسه الذي يحتفل فيه بميلاد "أدونيس" عند اليونان وفق أجواء طقوسية مشابهة لطقوس ميلاد المسيح، وهذا دليل على احتكاك الكنيسة بالوثنية اليونانية القديمة. (المرجع نفسه، ص 63)

ولقد أخذ المسيح أبعادا ودلالات عميقة في المسيحية، خاصة حين تعقّل الأمر بنقطة بؤرية هي مغادرة "يسوع" مسرح التاريخ (هووك ص.هـ، 1983، ص 143) وانتظار عودته من جديد، وهي العودة التي مجدتها الأناجيل، حيث اشتركت جميعها حول موت المسيح وانبعائه من جديد، فكأنه صار بعد ذلك أشد شها بأساطير الطقس البابلي القديم، ولعلّ تمجيد موت المسيح وانبعائه من جديد هو دليل على عنصر له جذور عميقة في التجربة الدينية. (المرجع نفسه، ص 143)

لكن ومهما يكن الأمر، فإن رسالة المسيح، من ميلاده إلى موته ثم بعثه من جديد -بحسب الاعتقاد الكنسي- تركز إلى فكرة الفادي المخلص للبشرية من الخطيئة الأولى التي ارتكبت بيد أبيها آدم، والذي جلب على ذريته الحرمان من الجنة، وهو عقاب قاس لا تتحمله البشرية، ولا طبيعة الضعف البشري؛ والخلاص بعد ذلك يتجسد في المسيح الذي سيحمل عن هذه البشرية أوزارها، ويرفع عنها الخطيئة والموت الأبدي، فيقيل هذا المخلص الفادي على الموت فوق خشبة الصليب بروح التضحية كلها من أجل البشرية قاطبة. (أبوغالي م، 1998، ص 64)

استنطاق المسيح في الشعر الفلسطيني المعاصر:

لقد وجد الشعراء الفلسطينيون في تجربة المسيح بما تخزنه من دلالات عميقة، وما تحمله من أبعاد، ملاذا للتعبير عن مأساة الوطن والأرض السليبية المغصوبة، ووجد فيه هؤلاء الشعراء أيضا ملجأ للتعبير عن مأساة الإنسان الفلسطيني بخاصة، والإنسان العربي المعاصر بعلمة، فيما يتعرض له من ضيم واضطهاد، ونفي وتشريد على يد عدوه الغاشم الذي اغتصب الأرض والمقنسات، ومن ثم وجد الشعر الفلسطيني المعاصر ضالته في رمز "المسيح"، فعكف الشعراء الفلسطينيون يستلهمونه يومنون به إلى أزمتهم الوجودية الحادة، وعلى مأساة شعبه من ثم، وهو ما يصوره "محمود درويش" في قصيدة "قال المغني"، وهي إحدى أناشيده الأولى التي أبرز فيها عذاب الإنسان الفلسطيني وصموده، فيصور ذلك تصويرا يجعله أنموذجا للتحدي والموت لأجل الأرض والوطن، يقول محمود درويش:

المغني على صليب الألم

جرحه ساطع كنجم

قال للناس حوله

كل شيء ... سوى الندم:

هكذا مت واقفا

واقفا مت كالشجر!

هكذا يصبح الصليب

منبرا أو عصاهم

ومساميره.. وتر! (درويش م، 1994، ص 85)

على صليب الألم تكون تجربة الصلب لدى البطل المخلص الفادي وطنه،
أنشودة يقوئل بها نشءانا للحرية والانعتاق. فمن غور المأساة وأعماق الجراحات
يبنغ الأمل بالنصر على جلايه وصالبيه، وينتصر على آلامه وعذاباته فيموت ميتة
عز وكبرياء مرفوع الهامة شامخا، ولا يتحقق النصر إلا عبر تجرع مرارة الفداء التي
تبشر بفجر جديد هو فجر الحرية والخلاص. (شعث أ.ج، 2002، ص 304)

ويصور محمود درويش معاني الفداء والتضحية حين ينذر نفسه متجرعا
الآلام لأجل خلاص الوطن، تماما مثلما تجرعها المسيح فداء للبشرية من خطيئة أبيها
الأولى، فيقول:

لو كان لي

حت صليبي ليس لي

إني له، حق العذاب

.....

يخلي لي يا صليب بلادي

ستحرق يوما

وتصبح ذكرى ووشما

وحين سينزل عنك رمادي

ستضحك عين القدر

وتغمز: ماتا معا (درويش م، 1994، ص 155)

وقد يرمز "محمود درويش" أحيانا بمعاني الفداء والتضحية، ليشير عبرها إلى مسيرة العطاء والفداء، فيجعل المسيح أنموذجا لهذا العطاء وذاك الفداء، بينما يهكذا رمز الوشاية، فيوحي به إلى التخاذل وخيانة قضية الوطن، يقول في قصيدة "نؤرخ أيامنا بالفراش":

نمر على الريح... منا المسيح، ومنا يهوذا، ومنا مؤرخ أرحامنا (درويش م،
1994، ص 382)

وكأن "محمود درويش" يريد أن يضيفي على المسيح بعض ملامح تجربته
الخاصة، بعد أن استنطق رمزيته مستلهما معاني الصلب والموت والفداء والتضحية
والقربان؛ منا المسيح -أي- من الأمة خيرون مسحاء مستعدون أن يقيموا أنفسهم
قربانا لأمتهم، ومنهم يهوذا أي شرار الخلق، فهم أعداء الأمة أعداء الحياة.

لما الشاعر "عزالدين المناصرة"، فيتخذ من حادثة الصلب الشهيرة وسيلة
لبلوغ أبعاد المأساة الإنسانية في معاناة الشعب الفلسطيني، فيوجد بين بعدي
المأساة الرمزي والتاريخي، مستدعيا مأساة المسيح في قصيدته "قصيدة جهوية"،
ليس قطعها على مأساة الوطن الذي يتعرض لأشد صنوف الظلم والعذاب من قبل
الاحتلال الصهيوني الغاشم، يقول المناصرة:

أنا... والمسيح

ولننا بمنطقة بواحدة

فإذا لم يطر في الصباح جناحي

عليك بأن تقبض الريح

ثم تشم جراحي

أنا... والمسيح

راعيان... وضد المجوس (المناصرة ع.أ، 1994، ص ص 2-6)

وفي الأنشودة نفسها يصور "المناصرة" بعد ذلك مشاهد العذاب هذه، بحيث
تجسّد أنه يتوحد مع المسيح توحدًا كليًا، فالشاعر والمسيح سيان (أنا والمسيح)،
حيث نلاحظ افتنان الشاعر هنا بالمسيح، باعتباره يجسد ثيمة العذاب التي عانى
منها شعبه وعانى منها هو ذاته، فرأى فيها عزاءه حيث كان يمشي معه على الأشواك
والأقذاء والمسامير، وهنالك تستلهم معاني الفداء والتضحية والقربان، ليقارب بها
الشاعر مأساة الوطن المقلس.

ولما الشاعر الفلسطيني الآخر "محمد القيسي" فحين يستدعي المسيح للتعبير
عن مأساة الوطن وقضية الأمة، فإنه يؤلف بين أبعاد الألم والعذاب الموحية بعمق
مأساة فلسطين في الغربية والمنفى، ويمارز بين ملامح "المسيح" ولامح السندباد
الرجالة المغامر (شعث أ.ج، 2002، ص 308) بما يعكس غربة الشاعر النفسية
ورؤياه في التعبير عن عمق المأساة الفلسطينية فيستدعي السندباد لتتلاحم ملامحه
مع ملامح المسيح وحلم العودة إلى الديار يقطع أوصاله كما جاء في قصيدة "مقاطع
في مدائن الأسفار":

على جواد الانتظار

أرحل في المساء يا أحبتي إلى مدائن النهار

أعانق الآتي على جناح ريح

تنتشليني يداه من قرارة البحار

فاستريح (القيسي م، 1987، ص 85)

على هذه الصورة يبدو السندباد، وقد أضفى عليه الشاعر من ملامح تجربته النفسية، وأزمته الوجودية والإنسانية، حين يبث السندباد أشواقه الملهبة وعذابه وهو بعيد عنه، مما جعله يحتشد وجدانيا وماديا طيلة مغامراته ورحلاته إلى حين عودته، وإذا كان ذلك شأن السندباد الأصلي، فإن السندباد الفلسطيني ما يزال يكتوي بنار الترقب والانتظار تائقا إلى هبوب ريح شديدة تعيده يوما إلى الوطن الحبيب. وفي المقطع الثاني يرى الشاعر أن مسيحه المعذب سندباد يعاني أحزان النفي عن الوطن وترحاله في أصقاع الأرض، فتارة يصوره يبكي على الضفاف وأخرى في مشهد الخليج. وكأنه في كل مكان يبحث عن سفائن العودة للوطن والخلاص من النفي والغربة (شعث أ.ج، 2002، ص 309)، إذ يقول:

رأيت سيدي المسيح

يبكي على الضفاف

والنهر يستحم تحت غيمة من الدخان

.....
رأيته على الخليج

ممتطيا خيول الحزن

يشكو من اغتراب (القيسي م، 1987، ص 85-86)

إن الشعور بوطأة المأساة الفلسطينية هنا هو الذي حرك اتجاه الأنشودة وأملى استدعاء المسيح والسندباد في آن معا، وتنطق "المسيح" بين النهر والخليج يلمح

إلى ذلك الفلسطيني المشرّد المنفي عن وطنه في زمن تدفقت فيه الهجرة الفلسطينية إلى الأردن والخليج العربي منذ النكبة وإلى ما بعدها، لذلك فإن غياب المسيح في رحلة الغربة في الخليج لم يرد عبثاً في القصيدة وإنما ليصور حالة التمزق والنفي الذي يعانيه الشعب والشاعر، ويبدو أن المسيح الذي أراده الشاعر في ثوب السندباد أقرب ما يكون إلى صورة واقعية لمعاناته التي لم تنته بعد. (شعث أ.ج، 2002، ص 310)

توقّنا إذن، مع الشعر الفلسطيني واستدعائه لرمز المسيح، وتحديدًا مع ثلاثة شعراء فلسطينيين معاصرين وهم: "محمود درويش"، "وعزالدين المناصرة"، و"محمد القيسي"، وكيف تفاعلوا مع هذا الرمز الديني من خلال بعض نماذجهم الشعرية، ولعل ما نستطيع تأكيده هنا، هو أن توسلهم برمز المسيح، كان مرجعه توقّهم لخلاصهم لخلاصهم وخلص فلسطين/ الوطن من نير الاحتلال الصهيوني الغاشم، فحملوا هموم الإنسان الفلسطيني ونقلوا مآسيه إبداعياً عبر القيم التي ارتبطت بالمسيح ارتباطاً عميقاً كالفداء والخلص والبعث والتضحية والقربان... حتى صارت هذه الشخصية الدينية المقدسة أقرب إلى الرمزية والأسطورية منه إلى الرسالية والمبعوثية، ولو أن استلهم المسيح لم يقتصر -في حقيقة الأمر- على الشعراء الفلسطينيين فحسب، بل سبقهم إلى ذلك كثير من الشعراء العرب المعاصرين ولاسيما التمزوين منهم والذين استدعوا أسطورة تموز الخصب والربيع في منجزهم الشعري، على غرار بدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي وعلي أحمد سعيد أدونيس ...

ومهما يكن الأمر، فإن الشعراء الفلسطينيين إنما استلهموا رمز المسيح لما يمثل من بديهة ودلالة استمدت طاقتها من معان الصلب والفداء والخلص...

وبخاصة أن رسالته من الميلاد إلى الموت تركز -بحسب الاعتقاد الكنسي- على الفادي المخلص من البشرية من الخطيئة الأولى التي اقترحت بيد أبيها "آدم" ومن ثم فإن تمجيد المسيح وصلبه في الشعر الفلسطيني بصفة عامة ولدى الشعراء المذكورين على وجه الخصوص، كان للصدى العميق الذي وجدوه في هذا الرمز الديني، حيث إن محنة الصلب التي اجتازها المسيح كانت أقرب في أجواءها إلى محنة هؤلاء الشعراء النفسية، كما طابقت تجربته الدينية المأساوية تجربة هؤلاء الشعرية الآسية.

- وفي ختام هذه المقالة التي حاولنا فيها الاقتراب من استنطاق رمز المسيح في الشعر الفلسطيني المعاصر، خلصنا إلى جملة من النتائج يمكن أن نوردتها في ما يأتي:
- لاحظنا في الأناشيد المدروسة نزعة إنجيلية واضحة، ويبدو جليا تأثر هؤلاء الشعراء بالعهد الجديد والكنيسة " المشرقية" بخاصة.
 - يبدو النسغ الدرامي طاغيا على الأناشيد المدروسة، حيث النبوة الحزينة سمة بارزة فيها.
 - اشترك الشعراء الثلاثة المذكورون في التجربة النفسية، ومطابقتها للتجربة الدينية للمسيح.
 - كما اشترك هؤلاء الشعراء في معان الفداء والخلاص والتضحية التي ميزت رمز المسيح لا بل كانت من صفاته البارزة، مما انعكس بوضوح على تجربتهم الذاتية وأزمتهم الوجودية الحادة.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم (برواية حفص عن عاصم).
- الكتاب المقدس، ع.ق، ع.ج، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، القاهرة، مصر، الإصدار الثالث، 2006.
- 1. أبو زهرة محمد (د.ت)، محاضرات في النصرانية، الإصدار الثاني، شركة شهاب للنشر والتوزيع، الجزائر.
- 2. أبو غالي مختار علي (1998)، الأسطورة المحورية في الشعر العربي المعاصر، (د.ط)، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- 3. بنيس محمد (1988)، حادثة السؤال، -بخصوص الحداثة الشعرية العربية في الشعر والثقافة-، الإصدار الثاني، المركز الثقافي العربي، بيروت، -الدار البيضاء-.
- 4. درويش محمود (1994)، ديوان محمود درويش، الإصدار الأول، دار العودة، بيروت.
- 5. شعث أحمد جبر (2002)، الأسطورة في الشعر الفلسطيني المعاصر، الإصدار الأول، مكتبة القادسية للنشر والتوزيع، فلسطين.
- 6. القيسي محمد (1997)، الأعمال الكاملة، الإصدار الأول، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
- 7. المناصرة عز الدين (1994)، الأعمال الكاملة، الإصدار الأول، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
- 8. هنري هووك صموئيل (1983)، منعطف المخيلة البشرية، -بحث في الأساطير-، ترجمة صبيحي حديدي، الإصدار الأول، دار الحوار، اللاذقية، سورية.